

موقع المعجزات من السنن

أرسل الله تعالى رسلاً لهداية البشر، زودهم بكتب ومعجزات كي تعينهم في مهمتهم، فأبراهيم عليه السلام يقوم بتحطيم الأصنام فيثور عليه قومه، ويشعلوا ناراً ويلقوه، فبحسب السنن ينبغي أن تلتهم النار إبراهيم؛ لأن جسمه قابل لذلك، لكن الله تعالى خالق الكون وسننه أوقفها إيقافاً مؤقتاً، كي تتحقق معجزة لنبيه إبراهيم، لكن السنة - كقانون عام - ستظل فاعلة حتى يوم القيامة، فالسنة قاعدة عامة، أما المعجزة فاستثناء، ومن قبل خالق السنن نفسه ﷺ..

أود أن أشير أن أثر المعجزة يكون على من شاهدها وليس على من سمع بها، أو قرأ عنها شيئاً (كخبر)؛ لذا فجدواها ليس بكثرة الحديث عنها، ولكن لمن عايشها ورآها ووقف عليها بنفسه.

كنائس مسيحية لا حديث لها إلا معجزات السيد المسيح، وحتى اليوم، الحديث تكرر ولا جديد فيه، وبعض المسلمين (كالصفويين) راح يناقش في اختراع معجزات لو عرضت على أطفال لرفضوها مثل: إن الإمام علياً رضي الله عنه حول رجلاً منافقاً إلى (كلب)، ونفخ على رجل نفخة واحدة فتحول إلى امرأة، تزوجت وأنجبت عدة أولاد، واستمر حالها كذلك عدة سنوات ثم عادت رجلاً^(١)...

(١) التشيع العلوي والتشيع الصفوي، د. علي شريعتي ص (٧٩).

هذا التخريف يتناسى أن هناك سنناً عامة لا يستطيع أحد خرقها أو تجاوزها أو تجاهلها، وأن ثمة عقولاً ترفض التخريف والتزييف والأساطير والمبالغات.

في كل الأديان هناك مطلوبات مرغوب فيها ومكروهات مطلوب تجنبها والابتعاد عنها..

فالصدق مطلوب دينياً والكذب منهي عنه، الأمانة مطلوبة والخيانة ممنوعة، الوفاء بالعهود مطلوب والنكث بها ممنوع، صلة الرحم مطلوبة وقطع الرحم ممنوع، العدل مطلوب والظلم ممنوع، الاستقامة مطلوبة والانحراف ممنوع، الزواج مرغوب مطلوب والزنا محرم ممنوع.

وفي القرآن الكريم والسنة نصوص تجلو وتوضح هذه (السنة) الكونية، وتجعل منها قواعد للسلوك، من ذلك:

١- ما ورد في سورة هود، والتي قال عنها صاحب الرسالة ﷺ: «شيبتي هود وأخواتها»، إنها تذكر أمماً وحضارات ضربتها أمراض قدمرتها تدميرًا، من ذلك التلاعب بالموازن، ومنها قطع الطرق، ومنها فساد العلاقات الجنسية، والسورة تذكر كل مرض وما جره من عقوبة.

٢- ومن أروع وأوضح هذه الصور، ما جاء عن رسولنا ﷺ، من أمراض تصيب الأمة وما يترتب على ذلك من عقوبات:

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه وقال: «يا معشر المهاجرين خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواغيت التي لم تكن في أسلافهم، الذين مضوا، ولا نقص قوم المكيال إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤونة، وجور السلطان، ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر، وما لم تحكم أئمتهم بما أنزل الله في كتابه، إلا جعل الله بأسهم بينهم»^(١)..

كل مرض يقابله عقوبة تناسبه.

٣- بين الوحدة والقوة وبين الفرقة والفتن:

يقول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحَكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦).

٤- بين الظلم وهلاك الأمم ودمار الحضارة:

يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (القصص: ٥٩).

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه: كتاب الفتن، باب العقوبات ١٣٣/٢.

٥- بين التجبر والتكبر والسقوط الحضاري:

يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ (الزخرف: ٥٥-٥٦).

٦- بين فساد المترفين والسقوط المدوي:

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرِيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (الإسراء: ١٦).

وفي قراءة أخرى: (أمرنا) أي جعلناهم أمراء، لكنهم فسقوا وابتعدوا عما أمر الله.

٧- بين اختلال موازين العدل والاعتدال والخراب الحضاري:

يقول تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (الكهف: ١٠٣-١٠٤).

٨- بين الطاعة والنصر والعصيان والفسل:

يقول تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّصْرُوا اللَّهَ بِنُصْرِكُمْ وَيُنَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ الْوُجُوهُ ﴾ (محمد: ٧-٨).

٩ - بين الاستقامة والتمكين:

يقول تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (النور: ٥٥).

ويقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الأعراف: ٩٦).

١٠ - بين الدعوة على بصيرة ومن دونها:

يقول تعالى: ﴿ قُلْ هَلْهُدَىٰ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٨).

١١ - بين كفر النعمة والجوع والخوف:

يقول تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل: ١١٢).

السنن في السنة

١- تقليد المتأخر من تقدمه في الخير والشر..

يقول ﷺ: «لتتبعن سنن من قبلكم، شيراً بشير، وذراعاً بذراع، حتى لو سلخوا جحر ضب خرب لسلكتموه»، قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»^(١).

٢- خمس بخمس..

يقول ﷺ: «خمس بخمس: ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا المكيال إلا منعوا الثبات، وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر»^(٢).

٣- لكل من دعاة الخير والشر نصيبهم..

يقول ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل إثم من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٥٦) ومسلم (رقم ٢٦٦٩).

(٢) رواه ابن ماجة والطبراني في المعجم الكبير عن ابن عباس). وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٢٤٠).

(٣) أخرجه مسلم كتاب العلم باب من سن سنة حسنة الحديث (٢٦٧٤).

هذه نماذج معبرة ومثلها كثير.. والمسلم مطالب بمعرفتها
وحسن التعامل، وإلا اصطدم معها، فعاد بالفشل والخسران في
الدنيا والآخرة..

مع آية التوبة

جاء في سورة التوبة: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ
كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ
تَغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾.

من المعروف أن رسول الله ﷺ خرج من المدينة ومعه عشرة
آلاف من الصحابة، فتح مكة وأسلم من أسلم، وجاءت الأنباء
أن عدة قبائل تتجمع لقتال المسلمين على رأسها هوازن وثقيف
وبنو سعد وبنو جشم وغيرهم، والغريب أنهم جاءوا بعوائلهم
وما يملكون من حيوانات فخرج رسول الله ﷺ بمن قدم من المدينة،
وانضم لهم (ألفان) فصار عدد المقاتلين (١٢) ألف مقاتل، وهو
أول جيش للمسلمين بهذا العدد، وسار الجيش باتجاه - وادي
حنين - وكان مقاتلو العرب قد (كمنوا) في سفوح الجبال، ومع
الفجر وصل الجيش الإسلامي يقوده رسول الله ﷺ، وفوجئوا
بأعدائهم يباغتونهم منحدرين من السفوح، وفعلت المفاجأة
فعلتها، فانكشف المسلمون تاركين رسول الله ﷺ وبعض
الصحابة، فأمر رسول الله ﷺ عمه العباس لينادي بأعلى

صوته: إليَّ عباد الله، إليَّ.. أنا رسول الله.. أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، وهكذا بدأ الصحابة يعودون للمعركة من جديد، ويلتفون حول رسول الله، ويصرخون يا لبيك، وانهمزم المشركون، والمسلمون خلفهم يأسرون ويقتلون..

لقد بدأت المعركة بهزيمة المسلمين وانتهت بنصر، وفي معركة (أحد) جرى عكس ذلك، ابتدأت المعركة بنصر ساحق للمسلمين وتحول إلى هزيمة ساحقة..

يقول سيد قطب عليه رحمة الله^(١): لقد كان نصر الله للمسلمين في مواطن كثيرة قريباً من ذاكرتهم، لا يحتاج إلى أكثر من إشارة، فأما وقعة (حنين) فكانت بعد فتح مكة في (شهر شوال سنة ثمان من الهجرة) وذلك لما فرغ ﷺ، وبلغه أن (هوازن) جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم (مالك بن عوف النضري) ومعه ثقيف بكاملها.. قد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاه والنعم، فخرج إليهم رسول الله في جيشه وهم عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار ومعهم الذين أسلموا من أهل مكة (ألفان) فسار بهم إلى (العدوة) فالتقوا (بحنين) وكانت الوقعة في أول النهار في غلس الصبح، وقد كمنت هوازن، فلما توجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم، وبادؤوهم

(١) في ظلال القرآن ص ٤/١٦٤، الطبعة السادسة (بتصرف قليل).

فولى المسلمون مدبرين، وثبت رسول الله ﷺ ومعه قلة (قريب من مئة) ... فجعلوا يعودون، ويصرخون يا لبيك، فأمرهم رسول الله بالحملة فانهمزم المشركون... ١هـ.

في وسط المعركة تعمل قوانين الحرب، فمن كانت خطته أفضل وأحكم ينتصر ولو كان مشركاً، ومن كانت خطته دون ذلك تلحقه الهزيمة ولو كان نبياً مرسلًا..

فتح القسطنطينية

لقد بذل المسلمون جهوداً كبيرة كي يفتحوا القسطنطينية، ولكن جهودهم باءت بالفشل حتى جاء محمد الفاتح بخطط جديدة وسلاح جديد، حيث تم صناعة مدافع - لأول مرة - كبيرة تضرب المدينة وأسوارها الحصينة، وكان هناك سلاسل حديد تمنع وصول السفن للمدينة فقام الجيش العثماني برصف أخشاب ووضع عليها الكثير من (الشحوم) ثم جرى سحب السفن لتتزلق فوق الأخشاب ولتقذف مجدداً في البحر، ولتفاجئ المدينة بأسلحة جديدة وأبراج خشبية عالية مع سفن تصل إلى جدران المدينة مع حماس لافتتاحها، وهكذا تغلبت الخطة الجيدة والجيش المتحمس، على حين فشلت العشرات من الحملات لأخذ القسطنطينية قبل ذلك.

مماليك مصر وهزيمة التتار

خرجت جيوش التتار من الصين وتوجهت غرباً تدك المدن وتسقط الدول الواحدة بعد الأخرى حتى سقطت بغداد، وقتل الخليفة العباسي ومعه سبعون من وجوه الدولة.

واستمر هذا الزاحف بقوته وعنفوانه حتى وصل مصر، ليجد أمامه المماليك وهم (عسكر محترف) فدرس أسباب انتصار التتار وهزيمة كل من قاتلهم، فحددوا الأسباب على الوجه الآتي:

يملك التتار جيشاً قوياً مع خيالة كثيرة العدد، وعند بداية المعركة تهجم (الخيالة) لتلحق الهزيمة بالعدو.

وقرر المماليك: يجب إجبار الخيالة على الحرب دون خيلهم، وأعدوا خطة محكمة تنفر الخيل وتدفع بها للهرب، فيقاتل الخيالة دون وجود الخيل، وهكذا عندما التقى الجيشان راح جيش المماليك يكبر ويضرب الطبول بقوة، وكذلك الأبواق والصناجات، والخيل تمتاز بقوة السمع والبصر فجالت الخيل وألقت الخيالة عن ظهورها، وفتح لها فتحات في الجيش كي تنطلق بعيداً عن أرض المعركة، وهكذا لحقت بالتتار أكبر هزيمة بفضل خطة عسكرية جيدة، حددت أسباب قوة العدو، وكيف يجري التعامل مع هذه القوة، فلحقت الهزيمة، وربما

بأقل الخسائر للجيش المصري، والفضل للخطة البارعة، وحسن إدارة المعركة، وهذا يصدق على معاركنا مع إسرائيل وغيرها..

وأخيراً هناك أكذوبة روجت - وما تزال - لجيش لم تلحق به هزيمة، فالجيش ومثله كل صراع، ينتصر الأفضل خطة وأداءً، وينهزم من لا خطة له، أو يمتلك الخطة لكنها دون خطط الخصم، وكل ذلك مع قطع النظر عن الحق والباطل، فالحق ينتصر بفضل أهله وحسن الأداء، وينهزم حين يسوء الأداء، أو لا يحسن عقد التحالفات أو لا يحسن إدارة الصراع، أو يعجز عن توفير متطلباته، فمن أين يتأتى النصر؟ وكيف يستقيم الظل والعود أعوج؟

